مجلة الباحث
موقع المجلة: https://journals.uokerbala.edu.iq/index.php/bjh/

أوضاع القوزاق في أوروبا الشرقية (1637–1671) دراسة تاريخية

ا. د. وائل جبار جودة
جامعه المثنى/ كلية التربية للعلوم الإنسانية
ا. م. د. رنا سليم شاكر
جامعه بابل /كلية التربية الأساسية

التخصص العام للبحث: **تاريخ حديث ومعاصر**	التخصص الدقيق للبحث: **تاريخ اوروبا الحديث**

معلومات الورقة البحثية

الكلمات الرئيسية:

القوزاق، بولندا ، روسيا، آزوف، بوجدان خميلنيتسكي، ستيبان رازين

المستخلص باللغة العربية:

تضمن البحث خمسة محاور ناقش المحور الاول التعريف بالقوزاق، الذين كانوا من الفلاحين وسكان المدن الذين فروا من الضرائب المتزايدة، وأحياناً من صغار النبلاء الأوكرانيين، و تابع المحور الثاني سيطرة القوزاق على آزوف العثمانية خلال المدة 1637-1642، فقد سيطروا عليها على مسؤوليتهم الخاصة ولم تتعاون معهم الحكومة القيصرية في بداية الامر ثم تعاملت معهم وفق مصالحها، وفي نهاية المطاف اجبرتهم عام 1642، الظروف والحكومة الروسية على التخلي عن ازوف عام 1642، وتكفل المحور الثالث بدراسة تحركات القوزاق العسكرية وانعكاسها على الموقف الروسي (1648-1667)، وابرز ما تمخض عن دراسة هذا المحور هو بروز شخصية القائد القوزاقي بوجدان خميلنيتسكي الذي سيطر على الاراضي البولندية ودخل العاصمة كييف عام 1648، وذلك الامر فسح المجال امام روسيا والسويد من اجل السيطرة على المزيد الاراضي البولندية وصولاً الى هدنة أندروسوفو عام 1667، و ركز المحور الرابع على دور ستيبان رازين في قيادة القوزاق ضد روسيا (1667-1670)، و قاد القوزاق ونجح في نهاية المطاف من السيطرة على استرخان عام 1670، و ركز المحور الاخير على القضاء على تمرد القوزاق من قبل الحكومة الروسية، ونهاية ستيبان رازين (1670-1671).

doi: https://doi.org/10.63797/bjh.

المقدمة

يعد موضوع الجماعات القوزاقية من الموضوعات المهمة، التي لم تحظ بالاهتمام الكافي في الدراسات العربية، ومن هذا المنطلق جاء اختيار الجماعات القوزاق وتحركاتهم السياسية والعسكرية في روسيا وبولندا، وتغيير الولاءات طبقاً لمصالحهم، وقد فرضت الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشها القوزاق عليهم تبنّي سياسات متغيرة في الولاء، تبعاً لمصالحهم وعلاقاتهم مع الأنظمة الحاكمة في روسيا وبولندا خلال المدة (1637-1671)، التي بدأت عام 1637، وهو العام الذي سيطر فيه الجماعات القوزاقية على ازوف العثمانية دون استشارة الحكومة الروسية واختتم البحث بعام 1671، وهو العام الذي فيه تم القضاء على تمرد استيبان رازين وهيمنة الحكومة الروسية على شؤون القبائل القوزاقية.

وتضمن البحث مقدمة وخمسة محاور وخاتمة ناقش المحور الاول التعريف بالجماعات القوزاقية، الذين كانوا من الفلاحين وسكان المدن الذين فروا من الضرائب المتزايدة، وأحياناً من صغار النبلاء الأوكرانيين، وانقسمت

القوى القوزاقية على قوزاق المدن وقوزاق زابوروجيين، وغيرهم، والذين تم إدراج بعضهم في ما سمى بالسجل، أي قائمة الجماعات القوزاقية الذين كانوا في الخدمة الحكومية الروسية، و تابع المحور الثاني سيطرة القوى القوزاقية على آزوف العثمانية خلال المدة 1637-1642، فقد سيطروا عليها على مسؤوليتهم الخاصة ولم تتعاون معهم الحكومة القيصرية في بداية الامر ثم تعاملت معهم وفق مصالحها، وفي نهاية المطاف اجبرتهم عام 1642، الظروف والحكومة الروسية على التخلي عن ازوف عام 1642.

وتكفل المحور الثالث بدراسة تحركات القوى القوزاقية العسكرية وانعكاسها على الموقف الروسي (1648-1667)، وابرز ما تمخض عن دراسة هذا المحور هو بروز شخصية القائد القوزاقي بوجدان خميلنيتسكي الذي سيطر على الاراضي البولندية ودخل العاصمة كييف عام 1648، وذلك الامر فسح المجال امام روسيا والسويد من اجل السيطرة على المزيد الاراضي البولندية وصولاً الى هدنة أندروسوفو عام 1667، والتي حصلت بموجبها، روسيا على جزء من أوكرانيا ومدينة سمولينسك، بينما احتفظت الكومنولث البولندي الليتواني ببيلاروسيا وجزء من أوكرانيا، أما كييف، فقد انتقلت إلى روسيا لمدة عامين ولكنها لم تُعاد إلى بولندا فيما بعد، و ركز المحور الرابع على دور ستيبان رازين في قيادة القوزاق ضد روسيا (1667-1670)، و ابرز الاسباب التي أدت الى معاداة روسيا قيام الحكومة الروسية باعدام شقيقه إيفان رازين بسبب مخالفة اوامرها، لذلك قاد القوزاق ونجح في نهاية المطاف من السيطرة على استرخان عام 1670، و ركز المحور الاخير على القضاء على تمرد القوزاق من قبل الحكومة الروسية، ونهاية ستيبان رازين (1670-1671)، واعتمد البحث على مصادر ومراجع اجنبية متنوعة والله ولي التوفيق.

أولاً: التعريف بالقوزاق

تكون القوزاق[1] من الفلاحين وسكان المدن الذين فروا من الضرائب المتزايدة، وأحياناً من صغار النبلاء الأوكرانيين، وانقسم القوزاق على قوزاق المدن وقوزاق زابوروجيين، و قوزاق المدن منظمين في أفواج يرأسها العقداء والقباطنة، و رئيس القوزاق هو الهيتمان[2] المنتخب (الذي صادق عليه الملك البولندي)، وأدى القوزاق خدمة الحراسة، حيث كانوا يحمون الحدود من هجمات تتار القرم، و مقابل ذلك منحتهم الحكومة البولندية رواتب مالية وأراضي، لكن لم يتقاضى جميعهم الرواتب، بل فقط أولئك الذين تم إدراجهم في ما سمى بالسجل، أي قائمة القوزاق الذين كانوا في الخدمة الحكومية، و ازاد عدد القوزاق ، أما أعداد الافراد المدونين بقت ثابتة في السجل دون اضافة الافراد الجدد، مما أدى إلى اضطرابات دائمة، وتجمع الساخطون فيما سمى بسيتش زابوروجي (Zaporizhian Sich)، التي كانت تقع في جزيرة خورتيتسا (Khortytsia Island)، أسفل شلالات نهر الدنيبر (Plokhy, 2001).

مثّلت القوزاقية الزابوروجية مجتمعاً حراً عاش على الصيد البري وصيد الأسماك، و أعتمد بشكل رئيسي على الحملات العسكرية، فقد شنوا سلسلة من الغارات غرضها النهب على تتار القرم والعثمانيين، وأحياناً على بولندا أيضاً، غرضها النهب، و ترأسهم السيتش الأتمان الكوشوي المنتخب[3]، والذي خضع له أيضاً الأتمانات المنتخبون (العقيدون)، وعند الذهاب إلى زابوروجيا، أجبر القوزاقي على ترك عائلته، إذ لم يكن يُسمح للنساء بدخول السيتش[4]، وغالباً ما كانت سيتش زابوروجيا مركزاً لتمردات القوزاق (Plokhy, 2001).

---

[1] اكتسب مصطلح (القوزاق) في الذاكرة الأوكرانية معنى: الشخص الحر الشجاع، المستقل عن السلطات الاستعمارية الرسمية للكومنولث البولندي الليتواني، المدافع عن الوطن والمدافع عن العقيدة المسيحية الأرثوذكسية، السيد والمالك والمنتج، الذي جمع بين سمات المزارع والمحارب، والفلاح والفارس، والمدمر والمبدع. للمزيد من التفصيلات ينظر: (Миколайович, 2022).

[2] هيتمان لقب تاريخي لقائد عسكري أو قائد جيش، يُستخدم في مختلف دول وسط وشرق أوروبا، بما في ذلك الكومنولث البولندي الليتواني، وإمارة مولدوفا، وأوكرانيا. الكلمة مشتقة من الكلمة الألمانية هاوبتمان (Hauptmann) وتعني الزعيم...، للمزيد من التفصيلات ينظر: (Plokhy, The Cossacks and Religion in Early Modern Ukraine, 2001)

[3]السيتش الاتمان الكوشوي المنتخب: الحاكم العسكري والإداري الأعلى، وكان يُنتخب في مجلس السيتش، وكانت من مسؤولياته إدارة التنظيم العسكري (الكوش)، وتوزيع الأراضي، وإدارة الشؤون القضائية للمزيد من التفصيلات ينظر: .(Subtelny, 2009)

[4] مجلس السيتش: كان يتم انتخاب كبار الضباط العسكريين، الذين كانوا يشغلون مناصب مهمة ويتخذون قرارات رئيسية في الشؤون العسكرية والدبلوماسية والاقتصادية، وعلى الرغم من أن كل قوزاقي كان يحق له رسمياً المشاركة في المجلس، إلا أن القوزاق الأغنياء كانوا غالباً ما ينجحون في انتخاب مرشحيهم للمناصب القيادية من خلال استغلال وضعهم الاقتصادي أو عن طريق الرشوة أو العنف...، للمزيد من التفصيلات ينظر: (Magocsi, Ukrainian history and national development, 1996).

تألف سكان الدون من القوزاق، ولم يكن بين القوزاق مزارعون تقريباً، فقد كان إنشاء الأراضي الزراعية محظوراً بقرار من المجلس العسكري، وانصبت أنشطتهم الرئيسية على صيد الأسماك والصيد البري فضلا عن ذلك، تلقت الجماعات القوزاقية راتباً ملكياً من المال والخبز والبارود مقابل خدمتهم في حراسة الحدود الجنوبية لروسيا، و حصلت الجماعات القوزاقية على دخل ثابت إلى حد ما (رغم تعرضهم لمخاطر كبيرة) من الغارات على أراضي الدولة العثمانية وخانية القرم، ولأن الحكومة كانت مهتمة بخدمات القبائل القوزاقية، اضطرت إلى التسامح مع حقيقة أن الدون أصبح ملاذاً للفلاحين الهاربين وسكان البلدات، و لم يكن هناك مساواة حقيقية بين القوزاق، فقد كانت النخبة الثرية (أصحاب المنازل) تملك أفضل مناطق صيد الأسماك، وقطعاناً كثيرة من الخيول، وحصلت على أفضل حصة خلال تقسيم الغنائم التي تم الاستيلاء عليها في الغارات، أما جماعة القوزاق الفقراء، فكانوا يعملون لدى أصحاب المنازل ويغبطونهم (Ure, 2002).

ثانياً: سيطرة القوزاق على آزوف العثمانية (1637-1642)

خطط الهيتمان إيفان كاتورجني (Ivan Katorzhnyi)، من اجل الاستيلاء على آزوف العثمانية، والغرض من ذلك هو كسب المزيد من العطاءات من الحكومة الروسية، وفي نيسان عام 1637، حاصرت قوة قوامها ثلاثة آلاف من قوزاق الدون، أربعة آلاف من قوزاق زابوروجيا بقيادة ميخائيل تاتارينوف (Mikhail Tatarinov)، مدينة آزوف، وفي الخامس من حزيران من العام نفسه، تم أسر مبعوث السلطان العثماني فوما كانتاكوزيني (Foma Cantacuzene)، من قبل قوزاق الدون أثناء توجهه من آزوف إلى أعالي نهر الدون، وأعدموه بتهمة التجسس، وفي الثامن عشر من حزيران، و تمكنت قوات تاتارينوف من اختراق معظم دفاعات آزوف الخارجية، بعد أن أرشدهم مرتزق ألماني إلى زرع لغم تحت أسوار المدينة. وقد قاومت القوات العثمانية المتبقية داخل القلعة مقاومة أخيرة، لكنها اضطرت إلى الاستسلام بعد ثلاثة أيام، و سارع تاتارينوف وكاتورجني إلى تحصين آزوف بعدة آلاف من القوزاق، وفي الخامس عشر من تموز من العام نفسه، أرسلوا وفداً إلى موسكو إلى القيصر الروسي لغرض وضع آزوف تحت حمايته وإرسال تعزيزات لهم (Rybakov, 1979).

أرسلت الحكومة الروسية لجنة إلى آزوف لتقييم جدوى تلك المخاطرة، ووجدت اللجنة أن تحصينات آزوف ومخازنها في حالة يرثى لها، وقدّرت أن تعزيز آزوف بشكل كافٍ بحاجة الى مبلغ قدره حوالي مائة وعشرين ألف روبل سنوياً، أي ما قارب عشرة أضعاف تكلفة متوسط عطاءات الدون كل عام، ولذلك، تقرر إرسال بعض الحبوب والذخائر إلى آزوف، مع رفض طلبهم الخاص بإرسال قوات، فقد أدركت الحكومة الروسية أن أي ارتباط علني بأعمال قوزاق الدون معناه منح السلطان العثماني ذريعة لشن حرب على روسيا، فأُرسل مرسوم مرسال إلى آزوف من اجل ادانتهم لقتلهم كانتاكوزيني، فضلا عن ذلك تم ارسال رسالة إلى السلطان أكدت على أن حكومة القيصر لم تكن متواطئة في أحداث آزوف، التي كانت من فعل **"قطاع طرق... يتصرفون لأسباب مجهولة... دون توجيه منا"** (Davies B. L., 2007).

لم يكن من الممكن احتواء الأزمة بسرعة، إذ تمكن القوزاق من تعزيز سيطرتهم على آزوف والصمود فيها، فقد أدت حروب مراد الرابع 1623-1640،(Murat IV) (أوزجان، 2019)، في المجر وبلاد فارس، ثم وفاته عام 1640، إلى تأخير خطط الحملة العثمانية لاستعادة آزوف، كما اعتذر خان القرم بهادر غيري (Bahadur Girei) (1637 - 1641) بنقص خبرته في محاصرة الحصون الحجرية، وفي تلك الأثناء، وجد التجار القادمون من مدن الدون والفولغا أن من المربح تزويد حامية القوزاق في آزوف بالمؤن، والتي بلغ تعدادها بحلول ربيع عام 1641 نحو خمسة آلاف وثلاثمائة رجل وثلاثمائة مدفع (Rybakov, 1979).

تمكن حسين ديلي (Hussein Deli)، باشا سيليستريا (Silistria)، من إنزال جيش عثماني قوامه من سبعين الى ثمانين ألف رجل مائة وعشرين مدفع لغرض حصار آزوف في حزيران عام 1641، بسبب افتقار قوزاق الدون إلى القوات اللازمة لتوسيع سيطرتهم عبر سهوب آزوف المحيطة ومضيق كيرتش (Kerch Straits)، إذ حاصرت القوات البرية والبحرية العثمانية المدينة، و لم يُساعد العثمانيون لا القصف المدفعي ولا الألغام، على اقتحام المدينة ورغم تدمير القلعة، و واصل قوزاق الدون الدفاع عنها باستماتة، واجبرت القوات العثمانية على رُفع الحصار، وأرسل القيصر رسالة شكر إلى قوزاق الدون، ثم ناشد القوزاق القيصر قبول آزوف تحت سيطرته، و ذلك معناه بدء حرب طاحنة مع الإمبراطورية العثمانية القوية، و في كانون الثاني عام ١٦٤٢، انعقد مجلس زيمسكي سوبور. وانتُخب ممثلون من جميع الطبقات، رجال صالحون وأذكياء تمت مناقشة ذلك الأمر معهم، صوّتت طبقة الخدمة لصالح الحرب، بينما عارضها التجار، ولم يكن أمام الحكومة خيار سوى عقد السلام مع العثمانيين، و وصل السفير العثماني إلى موسكو، ومن ناحية اخرى اضطر العثمانيون إلى الانسحاب في أواخر ايلول من العام نفسه، بعد مواجهة مقاومة شديدة ونقص في المؤن وانتشار الأمراض فقد أصيب كل من حسين ديلي وخان بهادر غيري بالمرض وتوفيا (B, 2009).

ومن ناحية اخرى وجه السلطان العثماني ابراهيم الاول 1640-1648 (Ibrahim I) (غازي، 2019) إنذاراً إلى الحكومة الروسية في اذار عام 1642، امتثل القيصر الروسي ميخائيل (Mikhail) (المالكي و العونان، دور القوزاق في وصول اسرة آل رومانوف للعرش، 2021)، لقرار السلطان، و أرسل القيصر في نيسان من العام

نفسه، مبعوثين إلى القوزاق وأمرهم بإعادة آزوف إلى العثمانيين والعودة إلى حُكّامهم، وبالفعل أُجبر القوزاق على الاستسلام بعد عام، وعندما انطلق السفير الروسي، إيليا دانيلوفيتش ميلوسلافسكي (Ilia Danilovich Miloslavsky)، إلى الدولة العثمانية، كُلّف بتهدئة الجميع، و منح القوزاق ألفين روبل راتباً من القيصر ومؤناً، ونقل تفويض القيصر إلى الوزير العثماني، (Davies B. L., 2007) فقد ذكرت الوثيقة ما نصّه: **"إذا أمر ملككم بذبح جميع هؤلاء القوزاق اللصوص في غضون ساعة، فلن يغضب جلالته"** (B, 2009)، ولم تتوقع موسكو أن تقع تلك الوثيقة في ايدي القوزاق، الغاضبون من الحكومة، فقد اخذوها من السفير وقرأوها (B, 2009).

قام العثمانيون العائدون بعد رحيل القوزاق من آزوف، في ايلول عام 1642، بتحصين المدينة وحرمان القوزاق من الوصول إلى بحر آزوف والبحر الأسود، ومنذ منتصف القرن السابع عشر، شن القوزاق غارات جريئة على نهر الفولغا وساحل بحر قزوين، ونهبوا القوافل التجارية الحكومية والخاصة، وقد ألحقت أعمال فرق القوزاق أضراراً كبيرة باقتصاد منطقة الفولغا السفلى وروسيا بأكملها، حاولت الحكومة وقف تلك الحملات، لكنها فشلت في ذلك، ومن جانب اخر، شهدت العلاقات بين موسكو والعثمانيين تدهوراً مستمراً آنذاك، فقد أعاد قوزاق الدون بناء حصونهم ومستوطناتهم قرب آزوف، وعادوا لشن هجمات على القوات العثمانية، ورد السلطان إبراهيم بمطالبة القيصر بإخراج جيش الدون من أسفل نهر الدون، وهو طلب فاق قدرة القيصر على تنفيذه، وترددت شائعات مفادها بأن السلطان كان مستعداً لاتخاذ إجراء عسكري لتطهير نهر الدون من القوزاق وصولاً إلى فورونيج (Voronezh)، وعلى الرغم من ذلك استمرت غارات قوزاق الدون التي زادت من استفزاز التتار والعثمانيين منذ عام 1643 لغاية عام 1648 (Riasanovsky & Steinberg, 2011).

ثالثاً: تحركات القوزاق العسكرية وانعكاسها على الموقف الروسي (1648-1667)

حدثت انتفاضات كبيرة ضد الحكم البولندي في ثلاثينيات القرن السابع عشر. ثم تلا ذلك هدوء، وقد انقطع ذلك الهدوء في عام 1648 بخروج القوزاق بقيادة بوجدان خميلنيتسكي(Bogdan Khmelnitzki)، فقد فرّ الضابط خميلنيتسكي إلى السيتش، بعد أن قام النبيل البولندي تشابلينسكي (Chaplinsky)، بنهب مزرعته وقتل ابنه، وبعد انتخابه هتماناً، دعا خميلنيتسكي القوزاق في ايار 1648إلى الثورة، هزمَت قوات خميلنيتسكي قوات الهتمان البولندي بوتوكي (Potocki)، في معركتين قرب المياه الصفراء وقرب كورسون (Corson)، وقد جذب هذا النجاح جماهير ضخمة من القوزاق والفلاحين إلى الثورة، و شهدت بعض مناطق أوكرانيا خلال الانتفاضة أعمال عنف واسعة ضد البولنديين والجماعات اليهودية ، و في كانون الاول عام 1648، انتصر الثوار في معركة بالقرب من بيليافيتسي (Bileavici)، على الجيش البولندي الذي كان قوامه خمسون ألف جندي، واستولوا على فولين (Volin)، وجزء من بودوليا (Podolia)، وفي كانون الاول من العام نفسه، استولى خملنيتسكي على كييف (Kohut, 1988).

حققت قوات خملنيتسكي النصر على الجيش البولندي الذي قاد الملك جون الثاني كازيمير فاسا 1648-1668، (John II Casimir Vasa)، في الخامس من اب عام 1649، في معركة زبوروف (Zaburov)، ومع ذلك، فإن حليفهم، خان القرم، الذي اشتراه البولنديون، خان القوزاق وهاجم الثوار في الثامن من اب من العام نفسه، وعلى أثر ذلك اضطر الثوار إلى توقيع معاهدة سلام زبوروف مع الملك، اعترف الملك بموجبها بخملنيتسكي كهيتمان لأوكرانيا، وتم زيادة سجل القوزاق، في ثلاث مقاطعات وهي كييف وتشيرنيغوف (Chernihiv)، وبراسلاف (Vibraslav) ، و تم تقييد سلطة النبلاء البولنديين، وأصبحت جميع المناصب هناك متاحة فقط للأرثوذكس، ومع ذلك، حصل النبلاء على فرصة للعودة إلى ممتلكاتهم، أما الفلاحون فقد تُركوا في طاعة أسيادهم (Stepankov, 1993).

استؤنف الصراع في عام ١٦٥١، إلا أن معركة بيريستيكو (Peristico)، في حزيران من العام نفسه، انتهت بهزيمة ساحقة للقوزاق، حيث خانهم حلفاؤهم في القرم مرة أخرى وانسحبوا من ساحة المعركة، واضطروا إلى إبرام سلام آخر، غير مرضي لهم، وهو سلام بيلا تسيركوف (Bella Tserkva)، تم تقليص عدد النبلاء البولنديين إلى النصف، و وصل عشرين ألفاً، وبقيت القيود المفروضة على النبلاء البولنديين في مقاطعة كييف فقط، إلا أن مجلس النواب البولندي رفض تلك الاتفاقية أيضاً، إذ كان النبلاء يأملون في سحق حركة التحرير الأوكرانية نهائياً، وفي عام ١٦٥٢، تمكن القوزاق وقوات القرم المتحالفة معها، من تحقيق النصر بالقرب من بروغ على نهر بوغ الجنوبي؛ حيث هُزمت قوات قائد الجيش الأعلى البولندي مارتن كالينوفسكي (Martin Kalinovsky) (Subtelny, 2009).

لكن خملنيتسكي كان يفهم أن الأمل الوحيد للأوكرانيين هو روسيا الأرثوذكسية، و منذ بداية النضال التحرري، توجه مراراً إلى الحكومة الروسية في موسكو بطلب قبول أوكرانيا تحت حمايتها، ففي عام 1653 اتخذ مجلس الزيمسكي قراراً بقبول أوكرانيا تحت حماية القيصر الروسي، في الثامن من كانون الثاني عام 1654، وافق مجلس الأوكراني في برياسلاف (Pereyaslav)، على ذلك القرار، وأدى اليمين بالولاء للقيصر، وبعد خضوعها لسلطة القيصر، بقيت أوكرانيا إلى حد كبير مستقلة، فقد احتُفظ القوزاق بالإدارة المنتخبة برئاسة الهيتمان؛ وعمل القضاء على أساس التقاليد المحلية؛ كما كان للهيتمان حق إقامة علاقات خارجية مع جميع الدول باستثناء بولندا والدولة

العثمانية، هذا من ناحية ومن ناحية اخرى قرار زيمسكي سوبور عام ١٦٥٣ معناه الحرب مع بولندا، وبحلول عام ١٦٥٤، كانت القوات الروسية قد استولت على سمولينسك (Smolensk)، وثلاثة وثلاثين مدينة في شرق بيلاروسيا (Belarus)، بما في ذلك بولوتسك (Polotsk) وفيتيبسك (Vitebsk)، ومينسك (Minsk)، وغيرها (Subtelny, 2009).

استغل السويديون إخفاقات بولندا، فبعد أن استولوا على عدد من أهم المدن البولندية، بما في ذلك وارسو، شكلوا تهديداً جديداً لحدود روسيا الغربية، وأعلنت روسيا الحرب على السويد في ايار عام 1656، وتم عقد هدنة مع بولندا بعد ان استولت القوات الروسية على ديربت (Derbet)، وبعض الحصون الأخرى في إستونيا (Estonia)، وحاصرت ريغا (Riga)، لكنها لم تتمكن من الاستيلاء عليها، واستؤنفت الحرب مع بولندا أيضا، لكن روسيا لم تستطع أن تحارب بولندا والسويد في الوقت نفسه بالإضافة إلى ذلك، بعد وفاة خملنيتسكي، طالبت فئة من كبار القوزاق بقيادة الهيتمان إيفان فيهوفسكي (Ivan Vihovsky)، بالعودة إلى سلطة الكومنولث البولندي الليتواني، ونجحت في عقد تحالف مع البولنديين ضد روسيا (Magocsi, 1996).

اضطرت روسيا في عام 1658 إلى عقد هدنة مع السويد لمدة ثلاث سنوات، وفي عام 1661 تم توقيع معاهدة سلام كارديس (Cardis)، وبموجبها أعادت روسيا إلى السويد جميع مكاسبها في منطقة البلطيق، أما الحرب مع بولندا فقد اتخذت طابعاً منهكاً وطويلاً، و بدأت المفاوضات في عام 1661، وبسبب التناقضات غير القابلة للتسوية بين الطرفين، جرت المفاوضات بصعوبة كبيرة وانتهت في عام 1667، بتوقيع هدنة أندروسوفو (Andrusovo truce)، لمدة ثلاثة عشر عاماً ونصف، حصلت روسيا بموجبها على أوكرانيا الواقعة على الضفة اليسرى ومدينة سمولينسك، بينما احتفظت الكومنولث البولندي الليتواني ببيلاروسيا وأوكرانيا الواقعة على الضفة اليمنى، أما كييف، التي تقع على الضفة اليمنى لنهر دنيبر، فقد انتقلت إلى روسيا لمدة عامين ولكنها لم تُعاد إلى بولندا فيما بعد (Bushkovitch, 2001).

رابعاً: دور ستيبان رازين في قيادة القوزاق ضد روسيا (1667-1670)

اندلعت أكبر انتفاضة قوزاقية، في مطلع الستينيات والسبعينيات من القرن السابع عشر قادها ابن قرية زيموفيسكايا(Zimovskaya)، القائد ستيبان تيموفييفيتش رازين (Stepan Timofeyevich Razin) والملقب ستينكا (Stenka)، الذي كان ينتمي إلى فئة القوزاق الأغنياء وذوي الأملاك، وقد حددت مصير أسرته إلى حد كبير مسار حياته، وفقاً للرواية، فإنه شارك جزء من قوزاق الدون بقيادة إيفان رازين (Ivan Razin)، الأخ الأكبر لستيبان، في حرب سمولينسك (Smolensk) عام 1665، و طلب إيفان رازين الإذن بالعودة إلى منزله، لكنه قوبل بالرفض، وعندها غادر من تلقاء نفسه، القي القبض عليه وأُعدم، لم يغفر ستيبان رازين للحكومة الروسية انتقامها من أخيه، طبيعته قوي ونشيط وصاحب إرادة وذكي، وتمتع الأتمان بطبع شرس لا يُقهر، و قاسياً إلى أقصى حد، افتقر إلى الشهامة والرحمة، و كان أكثر من أي شخص آخر يجيد إخضاع القوزاق الجامحين والمتمردين، و شعر في داخله بقوة سلطوية غامضة حتى أن البعض اعتبره ساحراً، وذلك الرجل، الذي تجاهل القوانين والأنظمة الكنسية، وحده استطاع تحدي المجتمع (وتميز ستينكا بالقوة والنشاط والدهاء السياسي وهو ما اهله لقيادة فرقة القوزاق لاسيما انها كانت تظم بين صفوفها محاربين جامحين ومتمردين ، وكان ستينكا بطبعه متمردا على القوانين والانظمة الكنسية) (Kollmann, 2017).

جمع رازين فرقة مكونة من ألف قوزاق في ايار عام 1667، وانطلق في حملة بحثاً عن الغنائم، في البداية، هاجمت فرقته قوافل التجارة التي كانت تبحر في نهر الفولغا، ثم خرجوا إلى بحر قزوين، بعد أن صعدوا عبر نهر يايك (Yaik) إلى مدينة ياتسكي (Yaitsky)، قضى رازين الشتاء هناك، وفي العام التالي، بدأ جيشه الذي بلغ عدده ألفين وكان يمتلك المدفعية بنهب السواحل الغربية لبحر قزوين، أي أراضي الشاه الفارسي، و استولى القوزاق على دربند وباكو ومدن أخرى، و قضوا شتاء عامي 1668-1669، قرب جيلان، و في أب عام 1669، عاد رازين إلى أستراخان، ونظر سكان المدينة إلى القوزاق، الذين كانوا يرتدون ملابس من الحرير والمخمل، وقائدهم المهيب الذي وزع الصدقات بسخاء بشكل استعراضي، بمزيج من الخوف والإعجاب، و اكتسب رازين مكانة لم يسبق لها مثيل بين عامة الناس، و في الرابع من ايلول عام 1669، غادر رازين مع رفاقه إلى نهر الدون بعد أن تحصّن في مدينة كاغالنيتسكي (Kagalnitsky)، كان يُحضّر لحملة جديدة، وهذه المرة ليست من أجل الغنائم، بل ضد البويار "الخونة" في موسكو، ومن المخطط أن يسيروا على طول نهر الفولغا، ولكن ليس نحو البحر، بل صعوداً إلى الشمال، و في الثالث عشر من نيسان عام 1670، وصل جيش ستيبان تيموفييفيتش، الذي كان عدده سبعة آلاف رجل، إلى مدينة تساريتسين (Tsaritsyn)، و لم يقاوم السكان القوزاق، بل فتحوا لهم أبواب المدينة بأنفسهم، أدخل رازين النظام القوزاقي في تساريتسين، حيث وزع جميع السكان إلى مجموعات من عشرات ومئات، وعيّن عمدة قوزاقياً بدلاً من الحاكم (Longworth, 1969)، ومن ناحية اخرى تم إرسال فرقة من أستراخان من الرماة بقيادة الحاكم الأمير سيمون لفوف (Simeon Lvov)، ضد رازين، و وفقاً للتقرير الذي وصل إلى إدارة الشؤون السرية، **"رجال الحرب الأستراخانيون... خانوا الدولة العظمى... وسلموا الستولنيك والحاكم الأمير**

سيميون لفوف إلى ذلك الكافر اللص والخائن ستينكا رازِين بأيديهم، وانضموا إلى هذا اللص، ولم يقاتلوه" (Avrich, 1972, pp. 81-82.)

وصل رازين إلى أستراخان دون عوائق، في الثاني والعشرين من حزيران عام 1670، و من غير المرجح أن يكون القوزاق قد تمكنوا من الاستيلاء على القلعة القوية، التي كان على جدرانها نحو اربعمائة مدفع، لولا تعاطف سكان أستراخان، فقد ارسلت رسالة الى القيصر الكسي (Tsar Alexei) (المالكي، الصراع على العرش في روسيا القيصرية 1605-1689، 2021) وصفت ذلك الامر فقد ذكر ما نصه: **"يا مولاي، إن رماة أستراخان قد خانوا وسرقوا، وخانوا جلالتك العظيم... وأستراخان سلموها له... لستينكا رازين، وفتحوا له الأبواب... أما الذين كانوا، يا مولاي، بأمرك في أستراخان... رؤساء رماة موسكو والنبلاء الموسكوفيين والسكان، ورؤساء رماة أستراخان ونبلاء أستراخان وأبناء البويار... فقد كانوا مخلصين لك، أيها القيصر العظيم، وقاتلوا ضد ذلك اللص الكافر، وقد قتل الكثيرين من رجال جيشك العظيم، وقتلوا حاكم أستراخان الأمير سيميون بروزوروفيسكي، وأصبحت السلطة العليا في المدينة بيد دائرة القوزاق"** (Avrich, 1972, p. 82).

تقدم رازين صعوداً على طول نهر الفولغا بعد أن سيطر على أستراخان، انضم إليه سكان ساراتوف وسامارا طوعاً، وثارَت أيضاً مدن أخرى في منطقة الفولغا، و ارسل رازين رسائل لجذب المجتمع اليه، الى جميع أنحاء البلاد، دعا فيها إلى قتل البويار والنبلاء وجميع موظفي الدولة، وذكر "أنا لا أريد أن أكون قيصراً"، و كتب أيضاً "أريد أن أعيش معكم كأخ"، ومن اجل جذب الناس إليه، نشر رازين شائعة مفادها أن ابن القيصر أليكسي، المدعو أليكسييفيتش (Alexievich)، (الذي كان في الحقيقة قد توفي في ذلك الوقت)، كان معه، وأكد أتباع رازين أن الأمير هرب من والده القاسي ومن البويار الأشرار، وأنه إذا اعتلى العرش تكون الحرية للجميع، وتزايدت صفوف المتمردين، وانضم إلى رازين الفلاحون الهاربون والخدم وفرق القوزاق الأخرى، ومن بين أقرب رفاقه برز القائد فاسيلي أوس (Vasily Os)، الذي أثار الرعب في عائلات النبلاء في فورونيج وتولا (Avrich, 1972, p. 83 .)

خامساً: القضاء على تمرد القوزاق، ونهاية ستيبان رازين (1670-1671)

قام القيصر أليكسي ميخايلوفيتش شخصياً بتوديع ستين ألفاً من رجال الرماة والجنود، في الثامن والعشرين من اب عام 1670، الذين أرسلوا لقمع التمرد وفي تلك الأثناء، حاصر المتمردون مدينة سيمبيرسك (Simbirsk)، و دافع الجنود بقيادة الأمير والوالي إيفان ميلوسلافسكي (Ivan Miloslawski) عن المدينة بشجاعة، وصدوا أربعة هجمات، و في الثالث من تشرين الاول من العام نفسه، جاء يوري بریاتینسکي (Yuri Breatynsky)، من قازان (Kazan)، بقوات حكومية لمساعدة المحاصرين، وفي تقريره للقيصر عن معركة قوات يوري بریاتینسکي مع المتمردين (Bosin, 2009)، و كتب الوالي ب. أوروسوف(B. Orosov): **" لقد سار هو وجميع رجال جيشك العظيم... ضد اللص ستينكا رازين، والتقوا معه على بعد عشرين سازهين[5]، ودار القتال، وفي تلك المعركة هُزم اللص ستينكا وطُرد... وبفضل رحمة الله... قُتل من هؤلاء اللصوص عدد لا يُحصى، أما اللص والخائن ستينكا نفسه، فقد أُخذ حياً، وطُعن بسيف، وأُطلق عليه النار من البندقية في ساقه، ومع ذلك هرب... وكان مع اللص ستينكا من اللصوص والقوزاق حوالي عشرين ألفاً، وبعد أن مُني بالهزيمة، فر رازين إلى الدون وبعد أن اختبأ في بلدة كاغالنيتسكي، حاول مرة أخرى جمع أنصاره."** (Bosin, 2009, p. 2808).

لقد قوّض الفشل سلطة الزعيم رازين الذي كان لا يُقهَر في السابق، إذ قام القوزاق الحريصون على شؤونهم، بقيادة الزعيم العسكري كورنيلا ياكوفليف (Kornela Yakovlev)، وإدراكاً منهم بضرورة الاهتمام بتبرئة أنفسهم أمام أعين القيصر، بالقبض على رازين وتسليمه إلى الحكومة، في الرابع من حزيران عام 1671، و شهد سكان موسكو مشهداً غير مألوف إذ كان رازِين يُنقل على عربة كبيرة عليها مشنقة، وكانت يداه وقدماه مكبلة بالسلاسل؛ وكان أخوه فرول يركض خلف العربة، وعلى عنقه طوق حديدي مربوط بسلسلة إلى طرف العربة، و تعرض رازين للتعذيب. ضُرب بالسوط، وعلق على المشنقة، ووضع على الجمر الساخن، وأحرق بالحديد المحمي، تحمل الزعيم القاسي، الذي عذب بنفسه الكثير من الناس، كل تلك المعاناة بشجاعة بعد التعذيب، أصبح جسده كتلة متورمة مضرجة بالدماء، و في السادس من حزيران عام 1671، تم تقطيعه إلى أربعة أجزاء، و احتفلت الحكومة بالنصر وتعرض المشاركون في الانتفاضة لاضطهاد شديد، ففي مدينة أرزاماس وحدها، تم إعدام أكثر من احد عشر ألف شخص خلال ثلاثة أشهر (Davies B. , 2004).

حاولت طبقة القوزاق الإطاحة بالنظام الحكومي القائم في روسيا وترسيخ حكمها خلال تمرد رازِين الدموي ، ولكن حتى في حال انتصارهم، بعد قتل البويارات، والقادة العسكريين، وأصحاب الأراضي، والمسؤولين، لما تمكنوا من إنشاء مجتمع جديد عادل، لأن تصورهم فقط على صورة ونمط حرية القوزاق، ولم يكن بإمكان البلاد كلها العيش كما كان يعيش القوزاق على حساب الاستيلاء وتقسيم ممتلكات الآخرين، و كانت البلاد بحاجة إلى

---

[5] وحدة قياس روسية قديمة اختلف المؤرخون في تحديد مسافتها فهناك من اكد (142) سنتمتر و رأي اخر (152) سنتمتر وعموماً يمكن القول انها بلغت تقريباً متر ونصف. للمزيد من التفصيلات ينظر: .(Vinogradov, 1955)

هيئات إدارة، وجيوش، ومحاكم، وضرائب. لا محالة، عاجلاً أم آجلاً، لابد من ظهور ملاك أراضٍ جدد، وقادة عسكريون، ومسؤولون من داخل صفوف القوزاق، وذلك الامر من شأنه أراقة المزيد من الدماء وذلك الامر انعكس سلباً على تطور روسيا آنذاك (Davies B. , 2004).

لم يكن شرع الله كافياً آنذاك على الأرض لضمان العدالة والإنصاف وحسن النية، فقد أساء ملاك الأراضي والمسؤولون معاملة مرؤوسيهم، وتحدى الفلاحون النظام الإلهي بتمردهم العلني، واندلعت ثورة ستيبان رازين عامي ١٦٧٠ و١٦٧١ بقيادة قوزاقي عانى أتباعه القوزاق لعقود من فقدان الاستقلالية والامتيازات مع توسع الحكومة الروسية في حدود السهوب، ومن بين مؤيدي قائد التمرد رازين، الفلاحون الهاربون وسكان المدن والأقليات الفنلندية والعثمانية غير الروسية في حوض نهر الفولغا شعروا أيضاً بثقل قبضة الحكومة أو ملاك الأراضي المتزايدة، و أشعلت ثورة رازين أيضاً اضطرابات فلاحية كبيرة في منطقة وسط الفولغا وفي مناطق محدودة من منطقتي الأرض غير السوداء والأرض السوداء الوسطى، لكن التمرد العلني كان لعبة خطيرة، واكتفى معظم الفلاحين بأشكال احتجاج أقل فعالية، و تباطؤ العمل وتوقفه، وعدم دفع الضرائب والرسوم (التي قد لا تُمثل احتجاجاً على الإطلاق، بل نتيجة معاناة حقيقية)، والتماسات لمعالجة المظالم (التي معناها أيضاً الاعتراف بالسلطة القائمة)، والفرار (الذي كان المسؤولون وملاك الأراضي تسامحوا معه أحياناً لجذب العمالة إلى المناطق قليلة السكان والمناطق الحدودية). على الرغم من أن جميع أشكال الاحتجاج غير قانونية، وإذا لزم الأمر، يتم قمعها بالقوة العسكرية، إلا أن الفلاحين تمكنوا أحياناً من تقليل الالتزامات، أو الحصول على تدخل سلطة أعلى، أو خلق هوية اجتماعية جديدة، ولا توجد طريقة موثوقة لقياس مستويات الإساءة التي تعرض لها الفلاحون الروس؛ فالكثير يعتمد على شخصية رؤسائهم وصفاتهم الأخلاقية، مثل قوى الطبيعة التي تُهدد البقاء المادي، قد تكون قوى السلطة تعسفية، وغير متوقعة، وساحقة، لكن هذا كان النظام الطبيعي للأمور، الذي تقبّله أو على الأقل توقعه الفلاحون وفئات أخرى في المجتمع الروسي (Avrich, 1972).

الخاتمة

جاءت خاتمة البحث محملةً بالنتائج الاتية:

توصل الباحثين الى ما يأتي:

- **أثبت البحث ان قوات القوزاق لم تكن قوى هامشية في اوروبا الشرقية، والدليل على ذلك سيطرتهم على ازوف العثمانية عام 1637 دون استشارة الحكومة الروسية، والادهى من ذلك قيامهم باحتلال الاراضي البولندية والسيطرة على كييف عام 1648، وعلى الرغم من ذلك يمكن القول عنهم ان مغامراتهم العسكرية على المدى الطويل سرعان ما تكون نتيجتها الفشل وعدم الثبات بسبب كثرة الخيانات التي تعرضوا لها، ولاسيما من بعض قادتهم المحليين.**
- **كشف البحث عن شخصيات عسكرية قوزاقية اثبتت قدرتها على المناورة والمطاولة في الحرب، ولاسيما بوجدان خميلنيتسكي الذي خلد اسمه في التاريخ عن طريق السيطرة على الاراضي البولندية عام 1648، وامتاز بالحنكة والدهاء في تعامله مع اعدائه، وهناك قائد اخر هو استيبان رازين على الرغم من شجاعته الكبيرة في السيطرة على استرخان، لكنه دفع حياته ثمن تسرعه بالقرارات العسكرية التي اتخذها، وربما فكرة الانتقام من اجل دم اخيه الذي اعدمته القوات الروسية هو الذي عجل بمصيره المأساوي عام 1671.**
- **تأكد من خلال البحث ان الحكومة الروسية، لم تدافع عن القوزاق الذين كانت تعدهم حرس حدود ودفعت لهم المرتبات، بل تعاملت معهم اشبه بقوة اجنبية تستغلها متى ارادت وتخلت عنها ببساطة متى ما تعارضت مع مصالحها، والدليل على ذلك اجبارهم على ارجاع ازوف للعثمانيين واعدام ايفان رازين لأسباب واهية.**

Avrich, P. (1972). *Russian Rebels 1600–1800.* New York: W. W. Norton & Company.

Bosin, Y. V. (2009). *International Encyclopedia of Revolution and Protest.* Oxford: Blackwell Publishing.

Bushkovitch, P. (2001). *Russia in the Age of Absolutism 1613–1725.* Cambridge: Cambridge University Press.

Davies, B. (2004). *Europe, 1450 to 1789: Encyclopedia of the Early Modern World.* New York: Charles Scribner's Sons (Gale Group).

Davies, B. L. (2007). *Warfare, State and Society on the Black Sea Steppe, 1500–1700.* USA and Canada: Routledge.
Kohut, Z. E. (1988). *Russian imperial policy and Ukrainian autonomy 1760s–1830.* Harvard: Harvard Ukrainian Research Institute.
Kollmann, N. S. (2017). *The Russian Empire 1450–1801.* Oxford: Oxford University Press.
Longworth, P. (1969). *The Cossacks.* New York: Holt, Rinehart and Winston.
Magocsi, P. R. (1996). *Russia and Ukraine: The Road to the Pereyaslav Agreement.* Toronto: University of Toronto Pres.
Magocsi, P. R. (1996). *Ukrainian history and national development.* Toronto: University of Toronto Press.
Plokhy, S. (2001). *The Cossacks and Religion in Early Modern Ukraine.* Oxford: Oxford University Press.
Plokhy, S. (2001). *The Cossacks and Religion in Early Modern Ukraine.* Oxford: Oxford University Press.
Riasanovsky, N. V., & Steinberg, M. (2011). *A History of Russia.* New York: Oxford University Press.
Rybakov, B. A. (1979). *Organizatsiia oborony iuzhnoi granitsy Russkogo gosudarstva vo vtoroi polovine XVI–XVII vv.* Moscow: Nauka.
Stepankov, V. (1993). *Encyclopedia of Ukraine.* Canada: Canadian Institute of Ukrainian Studies Press.
Subtelny, O. (2009). *Political, cultural, and social history of Ukraine* (Vol. 4 ed). Toronto: University of Toronto Press.
Ure, J. (2002). *History of the Cossacks, 15th–20th centuries.* Thames & Hudson.
Vinogradov, V. V. (1955). *Weights and Measures in the Soviet Union.* Washington: National Bureau of Standards (U.S. Department of Commerce).
В, В. А. (2009). *Азовское сидение. Героическая оборона Азова в 1637–1642 гг.* Вече.
Миколайович, П. В. (2022). КОЗАЦЬКЕ САМОВРЯДУВАННЯ НА ЗАПОРОЗЬКІЙ СІЧІ ЯК СКЛАДОВА ДЕРЖАВНИЦЬКОЇ ТРАДИЦІЇ УКРАЇНИ. *Akademic papers collection*, p. 28.
اسراء عبد الكريم طاهر المالكي. (2021). *الصراع على العرش في روسيا القيصرية 1605-1689*. البصرة، اطروحة دكتوراه غير منشورة متقدمة الى كلية الآداب جامعة البصرة: جامعة البصرة.
اسراء عبد الكريم طاهر المالكي، و مشعل مفرح العونان. (2021). دور القوزاق في وصول اسرة آل رومانوف للعرش. *مجلة آداب البصرة*، ص 123.
اماني جعفر غازي. (2019). السلطان إبراهيم بين الحقيقة والإفتراء : (1025هـ-1058هـ/ 1618-1648م). *مجلة كلية الآداب*، ص 1785-1803.
عبد القادر أوزجان. (2019). *سلطان الشرق مراد الرابع*. بيروت: منشورات الضفاف.

The research comprised five main sections. The first section discussed the definition of the Cossacks, who were peasants and city dwellers who fled increasing taxes, and sometimes minor Ukrainian nobles. The second section followed the Cossack control of Ottoman Azov during the period 1637-1642. They controlled it on their own initiative, and the Tsarist government initially did not cooperate with them, but later dealt with them according to its own interests. Ultimately, in 1642, circumstances and the Russian government forced them to relinquish Azov. The third section dealt with the study of Cossack military movements and their impact on the Russian position (1648-1667). The most prominent outcome of this section was the emergence of the Cossack leader Bohdan Khmelnytsky, who seized Polish lands and entered the capital, Kyiv, in 1648. This opened the way for Russia and Sweden to seize more Polish lands, leading up to the Armistice of Andrusovo in 1667. The fourth section focused on the role of Stepan Razin led the Cossacks against Russia (1667–1670), ultimately capturing Astrakhan in 1670. The final phase of the Cossack uprising focused on suppressing the rebellion by the Russian government, culminating in the end of Stepan Razin's reign (1670–1671).